يشكل ديالكتيك تطور الثقافة الحرة خطورة على انظمة الكثير من البلدان غير الديمقراطية، فأي توقف لعملية تطوير الثقافة والفكر يعد استثناءاً تاريخياً، مما يؤدي الى انحراف في مسار عمليات البناء الاجتماعي. والخطورة تكون اعظم اذا شكلت الأمية نسبة كبيرة في المجتمع، كما هي الحال مع الاحصائيات المفاجئة لليونسكو عن حجم الامية في الدول العربية (65 مليون، أي اكثر من 43%من السكان واذا اضيف الى هذا لامبالاة وتساهل وخيانه المثقف لدوره وخاصة في مجتمعات ما يسمى بدول العالم الثالث، فستكون النتائج بالتأكيد اكثر تشاؤماً، بل خطرة الى حد مريع.
اذن الدقة في تفسير دور المثقف هي حتمية تفرضها المسؤولية الذاتية والاجتماعية، فكل خطأ في تفسير دور المثقف يؤدي الى خطأ في تفسير دور الثقافة.

الدكتاتورية وفردوس الثقافة العراقية المفقود

سايكولوجيا المثقف المتكيّف والمثقف المتفاعل

فاضل سوداني

وعندما يكون هنالك التباس، يبدأ الغموض في تحديد دوره التاريخي والحياتي. فيصبح من السهولة اغراؤه واجباره حتى يتكيف لستعدادا لتنفيذ المشاريع الثقافية والفكرية ذات الطابع السياسي البوليسي التخريبي. وبهذا يكون صاحب الوعي البائس هذا تابعا للسياسي وجزءا من ماكينة السلطة. وهذا يعني توريط الذات في الوعي المشوه وتحويل المثقف الى متكيف مستعد دائما لتبرير قرارات النظام الدكتاتوري والتوسعي في شن الصراعات الطائفية في داخل المجتمع والحروب العدوانية غير المجدية بحجج مختلفة يكيفها ويبرمجها بالتدليس والاحتيال.
ومثل هذا المثقف هو الذي يهيئ الإرتزاق للوبوء في الثقافة والفكر.
اذن من هو المثقف التكيف ونقيضه المتفاعل؟
يدشأ التكيف ويصبح جزءا من عمليات التخريب الاجتماعي والثقافي في مرحلة البناء السلبي للتاريخ الاستثنائي، فقط عندما يكون هنالك خواء فكري يميز فعاليات الانسان الحياتية والفكرية. وسكونية في التطور الاجتماعي، اعني مرحلة التطور السلبي الذي يكون فيه الانسان بشكل عام والمثقف المتفاعل بالذات غريبا عن واقعه ومجتمعه، عندما تتوفر الشروط الاستثنائية التي لا تسمح له بممارسة دوره التاريخي كما هي الحال في المجتمع الديمقراطي.
وعندما يكون المثقف ذاته يقوم بتحويل قدرة الوعي والعقل الشموليتين الى آلية ضيقة، تحوله الى مشروع للتكيف مع سياسة السلطة الدكتاتورية، فيفقد حصانته الداخلية ليتحول الى مثقف متكيف يحفر الخواء في روحه وروح امته.

فالتكيف اذن هو الوقف السلبي للمثقف المتفاعل مع ذاته، يؤثر في تطوير العملية الفكرية بمسارها الديالكتيكي في مجتمعه سلبا لأنه يصبح داعية لبرنامج القائد (الذي يهيئ للمجتمع الى حروبه الشخصية التي تخلق تكامله كدكتاتور)، وتكون مهمته، اضافة الى مانكر، استغلال ثقافته لتنمية غرائز العنف للتوحشة في روح الانسان حتى تحتل الاولوية في سلوكه، فتتحول الى ظاهرة طبيعية في مجتمعات الانظمة الشمولية والدكتاتورية.
ويسبغ هذا المثقف على مثله السياسي الاعلى (الاب، الدكتاتور، الطاغية، القائد) صفات الرسل والقديسين. من هذا المنطلق، فان التكيف صاحب الوعي البربري للزيف والبؤس، يبني ذاته هامشيا، انه للتساهل للحصن دائما بالتبرير الجاهز، انه توريط الذات المثقفة في الالتزام بالوعي المشوه.
لذا فإن المثقف المتكيف جزء لا ينفصل عن النظام الدكتاتوري الشمولي المتسلط لدرجة يكون مستعدا لتهيئة الظروف التي تخلق عدمية الثقافة والفن، ومساهما دائما في تزييف حقائق الواقع المعاصر والحقائق التاريخية، فيصل الى مرحلة الاتكالية الفكرية، فيصبح المثقف الابن المدلل، يمنحه الدكتاتور المكرمات والهبات. ولكن في ذات الوقت يحرمه الحق في التفكير واتخاذ القرارات الخاصة لأن القائد، الدكتاتور هو الذي يفكر ويخطط بدلا عنه وعن الامة، فيتحول المثقف الى منفذ فقط، في الوقت الذي تشتد حساسيته الخاصة إزاء اخطر المستقبلي، مما يساعده على التكيف مع تحدث جديد ومتطلبات الظرف السياسي القادم من خلال خداع الرأي العام من جديد.
والميزة الاخرى التي تميز المثقف التكيف هي تطور وعيه سلبيا مع برامج النظام، كما حدث في السنوات الاخيرة من القرن الماضي، حيث فرضت التحولات السياسية والاجتماعية التي حدثت في العالم بعد الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة وانتصار شراسة الرأسمال العالمي، تكثيف العنف كوسيلة للاحتراب بين الدول، او بين الانظمة الدكتاتورية وشعوبها وخاصة في بلدان العالم غير الاوروبي. وقد خلق هذا تطورا في مفاهيم وممارسات الدكتاتورية والانظمة الشمولية فاصبحت اكثر شراسة من اجل ان تحافظ على مصالحها ووجودها، واستخدمت العنف بأبشع اشكاله لغة وحيدة ضد شعوبها، فتعاملت معها كأنها شعوب محتلة. واتسمت هذه الدكتاتوريات ببعض السمات التي حولتها الى انظمة فاشية كما حدث في بعض بلدان آسيا وأمريكا اللاتينية. وفي المنطقة العربية تجلى هذا واضحا في العراق في الحرب الداخلية ضد الشعب اولا، ومن ثم ضد ايران، اوفي سياسته العدوانية وطموحاته التوسعية في استغلال ونهب خيرات الشعوب، كغزوه للكويت التي كانت من خلال ديمقراطيتها وثروتها الطبيعية قادرة على ان تبني نظاما ديموقراطيا برلمانيا حرا ومؤثرا في بلده وفي الجوار ان، لذا فانه في ذات الوقت يشكل استفزازا للنظام العراقي.
وهذا التحول الجديد في بنية الدكتاتورية يحتاج الى تغير في المفاهيم والبرامج الثقافية، ويتطلب من المثقف موقفا وفهما جديدا اكثر من تكيفه في المرحلة السابقة. فالمرحلة الجديدة بالنسبة لتطور الدكتاتورية تحتاج الى ذلك المثقف الذي يغذي ويشيع هيكلة واساليب الفاشية التي سيتبناها النظام. فليس كافيا ان يكون مثقفا متكيفا فقط، وإنما يطالبه النظام ان يساهم في المتغيرات النهجية الجديدة في سياسته وان يكون المفهوم الفاشي الثقافة روحا وممارسة، كبلاء بعض مثقفي النظام في العراق في الساهمة في قمع الانتفاضة الشعبية، تخدعه حجج مختلفة مغلفة بدوافع ديمقراطية زائفة. فيتم التمسك بها كاسلوب للتدجين، سيبارك النظام الاستثنائي، وسيبرره المثقف التكيف اعلاميا. وبالتأكيد، سيتحول هذا المثقف الى مفكر مادام يتبنى تلك السياسة التي تشوه الفكر والثقافة الإنسانيتين وتحول الوطن الى ثكنة للحروب اللامجدية ومعسكر اعتقال لعموم الشعب بمن فيهم الاطفال الذين يتم تدريبهم على الروح الارهابية والحقد منذ نعومة اظفارهم، تحقيقا لأحلام القائد التوسعية.
وسيبذل السياسي كثيرا من الاموال والكفاءة وأنواط الشجاعة لتغذية هذا المثقف، ناشر الأبخرة الموبوءة، فيمنحه الحيلة والقدرة والقوة ومنديل الأمان ليساعده على تعميم منهجه الفكري الارتزاقي وإشاعة التشويه والنظرة الاحادية الضيقة في الحياة والفكر، من خلال إلغاء القدسية الفكرية (الدفاع عن الحرية الفكرية والاجتماعية والإبداعية)، فينجح النظام السياسي والمثقف التكيف في لملمة مجاميع من المثقفين الرتزقة الذين سيباركون المرحلة الجديدة التي لا تستغني عن العنف، بالمفهوم الفاشي، والحروب الداخلية والخارجية، ومن اجل ان يتم احكام الحلقة المفرغة، يبدأ هذا المثقف عملية البحث في تاريخ الثقافة البربرية القديمة لاكتشاف ذلك الفكر الذي يعظم ويؤله الزمن الاستثنائي لطاغية مشابه الى الطاغية الدكتاتور ونظامه الفاشي المعاصر.

ان هذا المثقف التكيف الدجن لا يكتفي بتبرير انتفاضة شعبه ضد النظام المتسلط من اجل العدالة والخبز والديمقراطية وطفولة وشباب آمن. وتتركز مهمة المثقف، في زمن السلم والحرب، في التنظير للافكار الجديدة وفي صياغة النظرية او النهج الارتزاقي لتصبح جزءا من المأزمة الفكرية، ويؤشر تسهيل الطريق للآخرين للتكيف من اجل الحصول على الكسب مادام مثله الاعلى (السياسي الاستثنائي) قد سرق السلطة والقوة بهذا التسلق الديماغوجي اللتوي السهل بعيدا عن الشرعية. وسيعمد الدكتاتور السياسي مستقبلا بمعية مثقفة التكيف، الى سرقة زمن المثقف المتفاعل غير التكيف والزمن الابداعي لعامة الناس والامة. فيكون الخواء هو التاريخ الذي يفرض نفسه، وتقود الجهالة الخراب والسكون الحضاري.
سيكون ديالكتيك الثقافة العربية وتاثيرها الديناميكي هامشيا مالم يأخذ بالاعتبار اهمية الدور التاريخي للمثقف التفاعل غير التكيف ومهماته الابداعية خارج منطق التكيف بمفهومه الذاتي والسياسي والاجتماعي كما اشرنا سابقا.
ومن اجل الوصول الى الوعي الخلاق لتطوير ذات المثقف التفاعل وعدم السقوط في شيزوفرينيا الذات والوعي (حسب الفهومة كير كغارد الفلسفية)، على المثقف أن يعتمد على تماسك ذاته وصلابتها وبنائها، اي اختيار ذاته من جديد للمساهمة في خلق البناء الاجتماعي والحضاري، ما دام المثقف الآن تخلى عن دوره التاريخي في الصراع الفكري والبناء، بعد ان اصبح مروجا لأفكار وبرامج سياسية. ويفرض هذا الهمية المثقف التفاعل، صاحب العقل الديناميكي والعارف التطورة. وهذه كلها تشكل سلطة المثقف التفاعل. فلا يكون للتطورات العظيمة التي حدثت في عالمنا في السنوات الاخيرة اية اهمية مالم تفرض تحققا مطلقا للديمقراطية، مما يحتم ملامسة حساسية المثقف التفاعل لما يحدث في الحاضر الآني، في وقت يخضع التكيف (والمثقف التكيف) الثقافة والفكر والكتابة الابداعية للزيف الذي يعزز عالما بوليسيا.
من هنا تأتي صعوبة الأزمة التي يمر بها المثقف المبدع والتفاعل الآن. وما رفضه لزيف الواقع الاستثنائي في زمنة الدكتاتورية إلا تأكيد لانسجام وعيه الفكري والفني. وهو يعد موقفا ومشروعا حياتيا وتاريخيا.
اذن، هكذا مثقف يؤشر ايجابيا كذات مبدعة في العمليات الفكرية والاجتماعية عندما توافر الظروف الطبيعية التي اشرنا لها. وهذه الايجابية هي التي تمنع عدمية الكفر والثقافة او اغتراب المثقف (في فترة ما)، بالرغم من ان الاغتراب مرتبط تاريخيا وفلسفيا بالانسان منذ نشوء قلق المجتمع والذات.
ولكن الخطورة تكمن في العمل على تعميم ظاهرة التكيف لدرجة انها لا تشمل المثقف فحسب بل المجتمع، لفترة زمنية استثنائية محددة، ولا يمكن للسلطة الدكتاتورية الاستثنائية ان تحقق هذا مالم تخلق الظروف التي تساعد على تكيف قطاعات كبيرة من المجتمع كما حدث في العراق عند وصول البعث الى السلطة في انقلاب عام 1968.

استقالة العقل الايديولوجي

ملاحظات أولية حول أزمة الإنتلجانسيا العربية

علاء جواد كاظم

لاشك في أن نقد العقل أو إعادة النظر في بناءاته من جديد أخطر ما أفرزته ظاهرة (العولمة) اليوم ولا شك في إمكانية أن تكون مراجعة العقل بكل قطاعاته وآلياته ومفاهيمه وتصوراته وحتى في رموزه الاعتقادية النابعة من ماض سحيق، أكثر جدوى ونفعاً من لعنة العولمة نفسها والهروب منها بمشاعر المرارة التي تسحق وتدمي وتثقل كاهل العقل العربي منذ عقد من الزمن.. هذه الحاجة الماسة إلى اجراء عملية نقد سريعة ومراجعة حقيقية شاملة للعقل ليست دعوة نظرية مجردة ولا هي تقليعة جديدة بل هي الحقيقية الأكثر نصوعاً إن ما نواجهه هو إشكالية كبرى وأزمة رهيبة يعانيها العقل بمستوياته المتعددة، الثقافي والسياسي والأخلاقي، أزمة شاملة ضربت مرة واحدة البناء الثقافي برمته (العقل والرؤية والانتاج المعرفي)، هذه القطاعات التي ترتبط وتتفاعل جدلياً لتشكل البناء الثقافي بكليته

انطونيو غرامشي

محمد عابد الجابري

حليم بركات

ولكي يحقق هذا الكشف والتحليل جدواه العلمية ولا يكون عبثا جديدا يضاف إلى أعباء أخرى، أجد نفسي ملزما بتحديد مجموعة للفاهيم الأساسية التي تشكل حدود هذا التحليل والرؤية للعنونة باستقالة العقل الأيديولوجي الخاص بالانتلجانسيا العربية، جراء أزمة لازمته منذ عقود. فماذا نريد بالعقل والأيديولوجيا، ولماذا الانتلجانسيا؟
وقفة أولى، ارتأينا أن نحدد مفهوما إجرائيا للعقل بأنه (الأداة التي تنتج الافكار) على نحو ما يحدد الدكتور محمد عابد الجابري. وهذه الأداة تمارس نشاطها ذهنيا يعتمد اللغة أساسا تلك القدرة على إنتاج الأفكار التي تبديها النخبة المثقفة في بلورة أيديولوجيا خاصة بها ناجمة عن قدرتها على التماهي مع تحولات الواقع الموضوعي أو امتصاص هذه التحولات والتساؤلات من قبل العقل لثقافي وإعادة بنائه فيه ثم إعادة إنتاجها من جديد بصورة تختلف تماما في لحظة امتصاصها على إنها أجوبة كلية وتصورات نظرية تستند إلى الواقع وتتخذ منهجا ديالكتيكيا..
أما الأيديولوجيا فهي مجموعة التصورات والافكار والمفاهيم التي تنتج عن العقل والنشاط الذهني الذي تمارسه الانتلجانسيا كنخبة ثقافية تصدر نسقا معرفيا كليا مرتبط بعملية انتاج لحياة اليومية الاجتماعية بصيغ ثقافية ورمزية وقيميه .. تشكل من خلالها رؤية اكثر حداثة وانسجاما للعالم وللمجتمع والإنسان، وتحاول النخبة المثقفة من خلاله أن تبني تصورا عن ذاتها في الوقت الذي توضح فيه أمالها وأهدافها باتجاه الفعل وتقديم البديل. بينما تشير الانتلجانسيا إلى فئة اجتماعية تتبلين في انتمائها الطبقي والأيديولوجي، وهي لفئة الأكثر ارتباطا بالعقل وعالم الأفكار والتجريد، ما يجعلها تقفز على المجتمع في أغلب الأحوال وتساهم فعليا في عملية انتاج الأيديولوجيا أو بلورتها أو صياغتها أو توزيعها وتمارس دورا أساسيا في عملية التحويل الاجتماعي.
إننا أمام مجموعة من المفاهيم الأساسية المرتبطة والمتفاعلة، التي تشكل في نهاية الأمر النظام الثقافي برمته (العقل والرؤية والإنتاج المعرفي - الأدبي - الفني)، تلك المفاهيم التي تمكننا من خلالها رصد ظاهرة الأزمة التي تعاني منها الانتلجانسيا العربية، وهي بالتأكيد أزمة مزمنة وليست عارضة. فما هي الملابسات وما الذي يتخفى وراءها؟
إذا اتفقنا على أن (الانتلجانسيا) هي تلك الفئة المشحونة بالعقل الأيديولوجي والقادرة بهذا العقل على انتاج تصورات متقدمة تتعامل مع الواقع الاجتماعي لقلبه، ورغم إنها ترفض الواقع فانها تتميز بقدرتها على التعامل مع خفاياه وقوانينه الداخلية في زمن ومرحلة معينة رغبة في انجاز الرفض وتحويله إلى واقع جديد. وبالطبع، إن هذه العملية من الانتلجانسيا العربية تستلزم مراجعة العقل ونقده، ومن ثم بناؤه على أسس علمية رصينة ومتحررة بحيث يضطلع هذا العقل بمهامه ومسؤولياته في بناء البديل نسقا ونظرية.
لقد تقادم الزمن على أزمة العقل العربي، وليجعل منها كارثة حقيقية تلم وتعصف بالواقع والعقل والإنسان العربي برمته مأساة حقيقية. وتطرح للشكالة في هذا التحليل على إنها عجز الانتلجانسيا عن بناء أيديولوجية حقيقية منسجمة مع الواقع العربي الموضوعي وحركته. ووجدنا أن هذا العجز يؤكد نفسه في طبيعة الإنتاج - الفكري والفني والأدبي - الذي تفرزه الانتلجانسيا العربية، حيث أخذت عينة لنماذج معينة من مجمل الانتاج الفكري والثقافي بين دراسات ومقالات وبحوث ونصوص أدبية بعد دراستها وفق تحليل اجتماعي معرفي وجدت نتائج الدراسة من خلالها أن الانتلجانسيا العربية غير ذات قدرة على صياغة رؤية جديدة للعالم والمجتمع والإنسان، وهذا يعود وفق تصورنا إلى:
• خلل أو سوء تمثل وامتصاص للثقف العربي في أي بلدان العالم لتحولات وعلائق وقوانين الواقع الموضوعي الذي يعود في الأصل إلى لعقل الثقافي ذاته وإلى اضطراب علاقة هذا الأخير مع الواقع الخارجي والأحداث والتحولات.
• عدم تطور وقع الحياة العربية نفسه. وهذه المسؤولية ملقاة تماما على عاتق الفئات والأنظمة السياسية العربية الراهنة التي عملت كل ما بوسعها للتشيء، العلاقة وتغريب المواطن عن الوطن وحبس الفئة التي تملك دون غيرها مفتاح تغيير الواقع وتحويله، في سجن السوط واللغة والترث ومفاهيم زائفة تتعلق بالدولة القطرية والأمة والقومية والآخر وخطر مصادرة لهوية الوطنية ما جعل من النخبة الثقفة تعمل خارج للعبة السياسية وبالتالي على هامش الحياة العربية.
ليس هناك وصفة سحرية أو كلمات أو ادعية تشفي النفس العليلة، لكن ثمة حاجة ماسة لإعادة قراءة الواقع الاجتماعي ذاته بتحولاته وقوانينه الداخلية ولخاصة وفق مستوى تطوره، وهذا يستوجب من جميع المثقفين، كخطوة أولى، تفكيك هذا الواقع ودراسة قوانينه وسماته ثم إعادة تركيبه من جديد، تلي هذه لخطوة إعادة بناء العقل لثقافي نفسه وفقا للنتائج التي تفرزها عملية التفكيك والتركيب حتى يتمكن من ملاءمة ديناميكية الواقع..
يرى انطونيو غرامشي انه مع ولادة كل طبقة اجتماعية تقوم أصلا على ممارسة وظيفة متخصصة في عالم الإنتاج الاقتصادي، تولد عضويا مجموعة أو اكثر من المثقفين الذين يضفون على هذه الطبقة انسجامها ووعيها الوظيفتها ليس في المجال الاقتصادي وحسب وإنما في المجال الاجتماعي والسياسي، فمع نشأة رب العمل الرأسمالي ينشأ الهندس وعالم الاقتصاد والسياسي ومنظم الثقافة لجديدة ومشرع لقوانين... تستند هذه الفرضية أساسا إلى مقولة (الصراع الطبقي) وهي إحدى أهم الإضافات الماركسية لعلم الاجتماع المعاصر، ورغم انه قد ثبت بما لا يقبل الشك أن لصراع الطبقي حقيقة نهائية ووقع اجتماعي أينما كان إلا أن هذا الصراع قد لا يظهر في بعض المجتمعات بشكل جلي وعياني خاصة في المجتمعات التي لم تصل في درجة تطورها إلى الدرجة التي حددها كارل ماركس نفسه، وبالتالي فإن هذا الصراع سوف لن يعبر عن نفسه في مستوى البنية الفوقية الذي تخيله ماركس أو غرامشي نفسه في لحظة التظهير التي تتحول البناءات التحتية للحضة إلى بناء فوقية يعبر عنها بأسلوب أدبي أو فني معين.
والمجتمع العربي من هذا النوع الذي تلتهم في الطبقات الكبرى طبقاته الدنيا بشكل غريب، أو تتماهى فيه طبقات مع أخرى، ما يجعله يظهر كأنه يعيش بطبقة واحدة هي الطبقة للتهمة أو للفترسة للطبقات الأخرى. هذه الأشكال من الصراع تتخذ أو تعبر عن نفسها بصراعات أيديولوجية فوقية تتمايز وفقا لما يكون شكل بنائها الاقتصادي (التحتي) الذي ترتبط بشكل تطورها الخاص أو نموها. وهذا النموذج من المجتمعات هو تحديدا الأكثر ارتباطا ببنية المجتمع العربي.
فالمجتمع العربي لم يتطور إلى الدرجة التي يتمايز عندها البناء الطبقي، وبالتالي الصراعي، في طبقتين، مالكة ومملوكة، إقطاعية وفلاحية، برولیتاریة وبرجوازية. وبنظرة سريعة لهذا المجتمع تجد أن السيد والعبد وللملك والإقطاعي والفلاح والبروليتير والبرجوازي، مجرد أسماء ومسميات ما زالت موجودة حتى اليوم تتعايش معا بشكل خيالي ولا يصدق. والأسباب كثيرة، منها الاستعمار بشكله وما نتج عنه من اختراق ثقافي. والتبعية الكاملة غير المشروطة للعالم الرأسمالي الغربي، والتفوق العلمي والتقني للغرب، ثم العولمة بالأمس ولخصخصة اليوم.
استنادا إلى فرضية غرامشي، ولان المجتمع العربي هو توليفة طبقية غريبة الأطوار من الطبقات الاجتماعية كان يفترض أن تتوالى تأريخيا ولا تظهر سوية بشكل غير منسجم وغير مستند إلى وسائل انتاج أو علاقات انتاج أو أي شكل آخر من الإسناد الظاهر أو لخفي، انتجت هذه التوليفة الطبقية توليفة ثقافية هجينة، إذ اصبح التعبير، هي هذه الفئات من المثقفين، كل مثقف مرتبط عضويا مع طبقته بغض النظر عما إذا كانت طبقته لها دعم حقيقي في عالم الانتاج أم لا، أو كانت إحدى الطبقات الاجتماعية (الأساسية) القادرة تأريخيا على الاستيلاء على السلطة أم لا.
جعل هذا الأمر نماذج كثيرة من المثقفين تعلفو على سطح الوعي الاجتماعي والواقع الاجتماعي مشكلة فوضى أيديولوجية عارمة، فظهر مثقفو السيد جنبا إلى جنب مع مثقفي العبد، مثقفو النظام السابق ومثقفي لنظام الجديد، مثقفو الإقطاعي والفلاح والبروليتير والبرجوازي، لأن الصراع الطبقي الذي يستند إليه هؤلاء للمثقفون لا يمكن أن يكون في علاقات الإنتاج أو على وسائل الإنتاج.
هذا الإفلاس الطبقي تحول، بفعل لحظة التظهير التي تحدث عنها غرامشي نفسها، إلى إفلاس ثقافي وأيديولوجي، إذا كان للطبقات الكثيرة للتعددة في المجتمع العربي أن تعيش في الهامش من وسائل الانتاج وعلاقاته بل خارج عالم الاقتصاد نفسه. وللملاحظة تؤكد أن أغلب المجتمعات العربية ما زالت تعيش زراعية أو بدوية قبائلية تعتمد العشيرة وليس المؤسسات المدنية الحديثة يقول الدكتور حليم بركات في كتابه (المجتمع العربي في القرن العشرين): "لقد وجدنا من خلال تحليلنا للمجتمع العربي في القرن العشرين أن هجوة واسعة وعميقة تفصل بين حلم التغيير والواقع الهزيل الذي يعيشه فيصفساني يتالف من جماعات متناقضة متناحرة، سلفي في منطلقاته وتوجيهاته، قبلي تهيمن فيه الجماعات القرابية الأبوية والاستبدادية، متخلف، ريعي، مرحلي، انتقالي، ترقي" وإذا كانت صناعتنا الوطنية ما زالت تراوح في نمط الانتاج الصناعي الحلي والبيتي (المانيفاكتورة) فإن بعض الدول بدأت إنشاء نموذج الصناعة العابرة للقارات والكوكب.
إن الانتلجانسيا العربية عاجزة عن إنتاج أيديولوجيا تعمل في قلب الواقع الاجتماعي العربي وعلى قلبه وتحويله ثم إعادته إلى طريق لتطور السليم الذي تحدده قوانين الإنتاج والاقتصاد العالمي.
وانطلاقا من ذلك، فإن المجتمع العربي هو مجموعة من المثقفين متعددي الولاءات، وبالتالي هو مجموعة متخاصمة من الايديولوجيات، متصارعة في سماء البنية الفوقية، لا تنم عن تصور أحادي منظم هذه الظاهرة مرصودة في المجتمع العربي منذ عقدين على الأقل، ولكنها غير مشخصة بشكل دقيق حتى الآن. وان الأزمة التي تعانيها الانتلجانسيا العربية هي جزء من مأساة الواقع العربي نفسه.
وللخروج من هذه الأزمة علينا أن نؤكد حقيقتين هما:
أولا: أن أكثر الحقائق التاريخية تؤكد على أن أغلب المثقفين أو النخب المثقفة، بسبب قدرتها على التعامل مع الافكار والمجردات، تملك لقدرة الحقيقية على الخروج على انتماءاتها التقليدية إلى انتماءات أكثر جدية وجدوى وبحكم تحليل واقع الانتلجانسيا النفسي والاجتماعي وجدنا أنها فعلا ترتبط بالأفكار والحقائق أكثر مما ترتبط بالعشيرة والقبيلة، ترتبط بالحداثة أكثر من ارتباطها بالثقافة السائدة، وتؤمن بالعلمية ولا ترغب بالتقليد والتكرار، تعشق الحقائق ولا تعشق الأوهام، تميل إلى التقدم والقيادة وتحمل المسؤوليات التاريخية ولا تميل إلى التراجع والتخلف والتبعية. وهذا ما يجعلنا نراهن على وحدة الايديولوجيين والنخبة الثقافية في العالم العربي.
ثانيا: أن نحدد أن علاقة الواقع بالوعي هي علاقة ديالكتيكية، بمعنى أن الوعي هو نتاج للواقع الموضوعي وتابع له، لكن ثمة إضافات كثيرة تؤكد قدرة الوعي والبناءات الفوقية على تغيير الواقع وقلب البناء التحتي في الكثير من الحالات، وهذا ما يؤكده الدكتور محمود أمين العالم حين يقول: "إننا نتحدث دائما عن العلاقة السببية بين الواقع والفكر ولا نتحدث أبدا عن الوظيفة الفاعلة للفكر على الواقع".
إن هذا يعيد للانتلجانسيا في كل مكان من العالم الثقة بنفسها باعتبارها القادرة على قلب نتائج العادلة لصالحها من جديد، رغم أن علاقتها بمجال الانتاج ليست مباشرة كما هو الحال بالنسبة للفئات الاجتماعية الأخرى، وان وسعة هذه العلاقة بمختلف مستوياتها هي لبنية الاجتماعية بمجملها والبناء الفوقي الذي يشكل المثقفون (موظفيه) الفعليين.
وبإمكاننا، انطلاقا من الفرضيتين السابقتين، أن نختزل المجتمع العربي إلى شكلين ثقافيين ونموذجين آيديولوجيين فقط، باعتبار أن للثقفين للتعددي الولاءات وحدوا ولاءاتهم في نموذجين فقط هما: النموذج السائد التقليدي الرتبط بالدولة والنموذج للرتبط عضويا بطبقات أو فئات زائلة يستند إلى قيم ماضوية ومنغلقة ومهيمنة.
ثمة نموذج آخر قادم غير متحقق هو مستقبلي، مضاد ومعارض للأيديولوجيا السائدة وخارج على الدولة والنظام الاجتماعي برمته، ويواجه من الدولة والمجتمع القمع والتهميش والتغييب إنه يسعى لغرس قيم المستقبل والانفتاح والإبداع والعقل والتفرد، هذا النموذج عليه أن يجمع نفسه حاملا آيديولوجية التغيير، متحونا بهاجس الانقلال والقلب الأيديولوجي في المجتمع العربي اليوم. كان الدكتور محمود أمين العالم قد أكد مرارا أن ثمة رؤية إيديولوجية وسلوكا معينا تجاه العالم، قد يشكل نقدا ونقيضا وتغيير ألبنية الثقافية السيطرة من أجل إرساء بنية ثقافية أخرى جديدة ومختلفة.
هذه الرؤية الاستثنائية تعم أغلب المجتمعات الإنسانية. وفي كل مجتمع نستطيع رصد هذه الظاهرة. وفي أغلب الأحوال تنقسم المجتمعات، خاصة في التحولات التاريخية الكبيرة والمراحل الانتقالية الشاملة، وهذا ما ينطبق، ثمة نظام يمثل قيما ومصلح معينة لجماعات معينة من جهة، ونواة لتصور نظام آخر يمثل قيما ومصلح متناقضة لجماعات أخرى مقابلة من جهة ثانية. هذه الجماعات الأخيرة تتصلح على الأغلب، بقيم مستقبلية، كما نوهنا سابقا، وقد تدخل في صراع معلن أو خفي مع الجماعات الأولى.
إن الواقع الموضوعي والاجتماعي يفرض نفسه باستمرار على الوعي الإنساني. وبلغة ماركس نقول: إن البنية التحتية الواقعية لها انعكاساتها دائما وأثرها وفضلها في صياغة البنية الفوقية الأيديولوجية لكن الأخيرة تفعل نفس الفعل المادي، بل إنها قادرة على تغيير البنى المادية التي صنعتها بشكل كبير إذ "ينسى البعض أن العامل التاريخي حالما تنتجه ظواهر اقتصادية أخرى يصبح مؤثرا بدوره فيؤثر في محيطه وحتى في الأسباب التي انتجته"، على نحو ما يقول الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه (تكوين العقل العربي).
هنالك فوضى عارمة تمزق الواقع العربي وتقطع أوصاله إلى صراعات فئوية بين جماعات لا حصر لها، هذه الفوضى تعبر عن نفسها بإيديولوجية ممزقة تقليدية تعتمد مقولة: (كل شيء من أجل السلطة)، قبالة ذلك هناك تصور ورؤية تعمل على تغيير الواقع الاجتماعي والثقافي والسياسي العربي، وتفكر بالتغيير، ولا تؤمن بالانسجام أو التكيف مع الواقع. إنها محكومة دائما بهاجس المستقبل وهاجس استعادة الإنسان العربي لكرامته وقدرته الذاتية للخروج على حالة الاغتراب أو العجز، فتشكل الايديولوجيا، سوسيولوجيا، إجابة حاسمة على جملة من الأسئلة التي يدفع بها الواقع الاجتماعي وتحولاته، والتي فشل القديم - تصورا وفلسفة ومثقفين - في بلورة أجابة نموذجية صالحة أو حاسمة أمامها. والحقيقة أن هذا الفشل يتطلب بل ينتج انتلجانسيا تمتلك القدرة على امتصاصه وتمثله وتفكيكه وإعادة بنائه ليصبح السؤول الأول والأخير عن عمليه التغيير وتجاوز الفشل الذي ينم عن واقع مختل ومزيف، وبالتالي خروجها على أزمتها، بتقديمها الرؤية جديدة تستهدف قلب الأوضاع وإعادة بناء علاقة الإنسان العربي بالعالم وللمجتمع الإنساني من جديد. وعندها تتبلور التصورات إلى أيديولوجية جديدة، تصبح فيما بعد مركز جذب لأغلب النخبة للثقفة رغم خلاف انتماءاتها الطبقية والعرقية، بينما تدفع بالقسم الآخر منها إلى للعسكر التقليدي الماضوي للرتبط بأيديولوجيات زائلة وطبقات ينتمي أغلب قيمها إلى الماضي الذي يشكل المستقبل سحقا جدلياته.

تنويه

نشرت (المدى) في عددها يوم 2003/12/29 مقالة بعنوان (أوهام المجتمع المدني في العراق: نقد الدولة أم نقد الفرد)، وهي للكاتب علاء كاظم جواد. وقد سقط اسم الكاتب سهوا. وهي، اذ تقدم له هذه المقالة الثانية، تعتذر له وللقراء